الفصل السابع

نخبة من المضحين بالذات كمخلصين

أصول حركة اللطامين

يبدو أن ممارسة جلد الذات ولطمها (ص ١٢٧) لم تكن معروفة في أوروبا حتى تم تبنيها من قبل النساك في المجتمعات الرهبانية في كمالدولي وفونت أفيلانا في وقت مبكر من القرن الحادي عشر، وما أن اخترعت الصورة الجديدة من العمل التكفيري حتى انتشرت بسرعة حتى انها لم تصبح فقط سمة طبيعية من حياة الرهبنة في كل النصرانية اللاتينية بل التقنية الأكثر شيوعا للتكفير ، الى حد أنه في الواقع إن المعنى الحرفي لاصطلاح « انضباط » كان محصورا في « يلطم » وما كان يمكن أن يعني بالنسبة لهؤلاء الذين يمارسونه يظهر مشرقا في الوصف الذي خلفه راهب من القرن الرابع عشر حول تجربته الخاصة ، في ليلة شتاء قام هذا الرجل :

« يحبس نفسه في صومعته وتجرد من ثيابه كلها... وأخذ سوطه ذا الأشواك الحادة ، وأخذ يضرب نفسه على الجسم والذراعين وعلى الساقين حتى اندفع الدم منه كما لو كان من رجل محجم ، وكانت احدى الشوكات في السوط معقوفة كالخطاف وكلما تعلقت بأي جزء من اللحم أمسكت به ومزقته ، وطارت الأطراف الى الحائط ثم وقف هناك وهو يدمي وحدق في نفسه ، لقد كان منظرا بائسا حتى انه ذكره بطرق كثيرة بالمسيح المحبوب ، عندما ضرب بصورة مروعة ، ومن الاشفاق على نفسه بدأ يبكي بمرارة ، ثم ركع عاريا ومغطى بالدم في الهواء الصقيعي ، وتضرع الى الرب أن يمحو خطاياه من أمام عينيه اللطيفتين ».

لقد كان جلد الذات تعذيبا مروعا أوقعه الناس في القرون الوسطى

على أنفسهم بأنفسهم بأمل استمالة الرب القاضي والمعاقب ليبعد عقابه وليغفر لهم ذنوبهم ويعفيهم من العقاب الأكبر الذي سينالهم في هذه الحياة وفي الآخرة ، وحتى خلف هذه الغفران المجرد أمل آخر أكثر نشوة ، وإذا أمكن لراهب أصولي أن يرى في جسده الدامي صورة لجسد المسيح فليس من المدهش أن العلمانيين الذين غدوا من اللطامين ثم هربوا من الرقابة الكهنوتية شعروا بأنهم مكلفون بمهمة خلاصية (ص ١٢٨) لا تضمن فقط خلاصهم وحدهم بل البشرية كلها و مثلها مثل الفقراء قبلها ، رأت طوائف اللطامين المنشقة في تكفيرها تشبها جماعيا بالمسيح له قيمة أخروية فريدة .

وكان في المدن الايطالية المزدحمة أن ظهرت مواكب منظمة من اللطامين للمرة الأولى ، وانطلقت الحركة في ١٢٦٠ بوساطة ناسك من بيروغيا وانتشرت في اتجاه الجنوب الى روما وفي اتجاه الشمال الى مدن لومبارديا بسرعة حتى بدت للمعاصرين كوباء مفاجيء للندم ، وزحفت حشود من الناس من الشباب والصبية وسارت ليلا ونهارا بالعادة بقيادة كهنة وتنقلت بأعلام وشموع مضاءة من مدينة لأخرى ، وكانوا كلما وصلوا الى مدينة نظموا أنفسهم في مجموعات أمام الكنيسة وجلدوا أنفسهم لساعات بلا انقطاع ، وكان الزخم المؤثر الذي أحدثه هذا التكفير العلني على عموم السكان كبيرا ، فاعترف المجرمون وأعاد اللصوص ما سلبوه ، وأعاد المرابون الفوائد على قروضهم ، وتم التراخي بين المتخاصمين وتم تناسي الحزازات حتى الطرفان المتحاربان اللذان كانا يقسمان ايطاليا ، الغولف أو مؤيدوا البابا والجيبللين أو مؤيدوا الامبراطور ، فقدا للحظة بعض عنادهما،واشتركت مدن بكاملها في الحركة ففي ريغيو شارك القاضي الرئيس والأسقف وكل النقابات ، ومع تحرك المواكب كان حجمها يتزايد باستمرار حتى أصبحت تشكل الوفا عدة ، ولكن كان إذا انضم اليها أحيانا أناس من كل الطبقات كان الفقراء هم الذين يستمرون حتى أنه في المراحل التالية للحركة كانوا يبقون وحدهم .

إن الظروف التي حدث فيها هذا الانفجار الأول لحشد اللطامين هامة ، وحتى بمعايير العصور الوسطى فقد كانت الظروف في ايطاليا في تلك اللحظة قاسية بصورة استثنائية ، ففي ١٢٥٨ كانت هناك مجاعة ، وفي ١٢٥٩ حدث انفجار خطير للطاعون ، و فوق كل ذلك كانت هناك الأعمال الحربية التي لم تتوقف بين الغولف والجيبللين والتي انزلت البلاد الى حالة من البؤس البالغ وعدم الأمن ، وكانت حالة مدن الغولف بشكل خاص شديدة التعاسة ، لأن قضيتهم عانت من ضربة عنيفة عندها هزم الفلورنتين في مونتابرتو مع مذابح مروعة على أيدي التوسكان ، وبدا أن ما نفردبن فردريك الثاني في طريقه الى فرض سيطرته على ايطاليا كلها ولم يكن للاشيء أن حركة اللطامين بدأت في مدينة غولفية ، وازدهرت اكثر ما يكون بين الغولفيين ، ومع ذلك أعطت كل هذه البلايا الاحساس بأنها ليست سوى مقدمة لكارثة شاملة ، ولاحظ أحد المؤرخين أنه خلال مواكب اللطامين كان الناس يتصرفون بخوف كما لو أن الرب كان على وشك أن يدمرهم جميعا بالزلازل وبالنار من السماء كعقاب لهم على ذنوبهم ، وكان هؤلاء التائبون يصيحون وهم في عالم بدوا فيه و كأنهم يرفرفون على حافة هاوية و هم يضربون انفسهم و يلقون بأنفسهم على وجوههم :« أيتها العذراء المقدسة ارحمينا اسألي يسوع المسيح أن يعفوعنا» و الرحمة الرحمة،السلام السلام ، وهم يدعون بلا انقطاع ، كما أخبرنا ، حتى بدا أن الحقول والجبال ترجع صدى صلواتهم وصمتت الآلات الموسيقية وتلاشت أغاني الحب » . ولكن الذي كان هؤلاء اللطامون يناضلون لانتزاعه من الرب كان أكثر من مجرد الراحة من المتاعب الراهنة ، فقد كانت تلك السنة سنة ١٢٦٠ ، أي السنة الرؤوية ، التي فيها طبقا للتنبوءات اليواكمية الزائفة كان العصر الثالث متوقع الوصول الى مرحلة التحقيق ، وبين المجاعة والوباء كانت اعداد وفيرة من الايطاليين تنظر بصبر نافذ بزوغ عصر روح القدس ، العصر الذي سيعيش فيه كل الناس في سلام ملتزمين بالفقر الطوعي ، مستغرقين في نعيم التأمل ، ومع مضي شهر وراء شهر اصبحت هذه التوقعات الالفية اكثر شدة حتى أخذت

صفة هستيرية يائسة نحو نهاية السنة ، و بدا الناس يتعلقون بقشة ، و بحلول ايلول كانت كل معركة حتى معركة مونتا برتو يمكن أن تعطي اهمية اخروية ، و عندما مضت ستة اسابيع اخرى و بدا تشرين الثاني ظهر اللطامون ، و يذكر المؤرخ سالمبين اوف بارما الذي كان هو نفسه يواكميا كيف كان الناس متلهفين لأن يروا في هذه المواكب الحزينة بداية الثناء الكبير، و في ايطاليا ماتت حركة الجلد الجماهيرية بسرعة بعد التحرر من الوهم ، ولكن في ١٢٦١ ـ ١٢٦٢ عبرت الألب وعادت للظهور في مدن جنوب المانيا والراين ، وبدا أن الزعماء كانوا ما يزالون ايطاليين ، ولكن بينما كانوا يمرون عبر المدن الالمانية اندفع السكان بالمئات ليشكلوا مواكب جديدة ، وبلا شك كانت الحركة تملك تنظيما بالفعل في ايطاليا ، ولكن عند هذه النقطة بدا المؤرخون يلاحظون وجود واحدة ، وكان للطامين الألمان طقوس واغان ، وقد صمموا حتى لباسا موحدا ، وعلاوة على ذلك بدا أن الزعماء في حالة استحواذ على رسالة سماوية كتلك التي حملها مرة بطرس الناسك ، ومرة أخرى منذ عدة سنوات مضت ـ من قبل استاذ هنغاريا ، وفي هذه المناسبة بقي النص محفوظا ، وتذكر الرسالة أن لوحا من الرخام يشع بضوء خارق للطبيعة قد هبط حديثا فوق مذبح كنيسة الضريح المقدس في القدس ، في حضور جمع من المؤمنين ، وظهر ملاك إلى جانبه وتلا الرسالة التي املاها الرب بنفسه عليه ، وكانت رسالة مفعمة بالمعاني الأخروية ، وتعج بعبارات مأخوذة من القطعة الشهيرة من سفر الرؤيا المنسوبة للمسيح ، وتتحدث عن البؤس والكرب الذي سيتقدم على المجيء الثاني ، لأن الرب كان غاضبا من البشر بسبب غرورهم وتفاخرهم وتجديفهم وفسقهم وإهمالهم لصيام السبت والجمعة (ص ١٣٠) ولتعاملهم بالربا ، وفي الحقيقة من أجل كل هذه الآثام التي كان من الشائع اعتبارها بمعنى خاص خطايا دايفز ، وقد عاقب الجنس البشري بالفعل بإرسال الهزات الأرضية والنار ، والجفاف ، والطوفان والمجاعة والطاعون ، والحروب والغزوات التي خرب فيها المسلمون و الوثنيون الآخرون أراضي النصارى ، وفي النهاية بسبب غضبه من

العناد الذي تعلق به الناس بطرقهم الشريرة قـرر أن يقتـل كل شيء حي على الأرض ، ولكن العذراء والملائكة خروا عند قدميه وتوسلوا إليه أن يمنح الجنس البشري . فـرصة أخيرة ، وتـأثر الرب بتلك التـوسلات ووعد أنه إذا أصـلح الناس الآن طـريقهم وتخلوا عن ممارسة الربا والزنا والتجديف ، فإن الأرض ستزدهر ، وسـتعطي ثمارا وفيرة ، وعند هذه الأخبار بدأ المؤمنون في القدس البحـث عن بعض الوسائل لشـفاء الجنس البشري مـن نزعاتـه المهلكة نحـو الخطيئة ، وفي النهاية ظهر الملاك مرة أخرى ليأمرهم بمتابعة موكب لطم مدة ٣٣ر٥ يوما تذكيرا بعدد السنين التي طبقا لحساب تقليدي أمضاها المسيح على الأرض ، وهكذا ـ اختتمت الرسالة ـ جاءت الحركة : وقد أطلقهـا في المقـام الأول ملك صـقلية (ويتسـاءل الانسان : هـل هـذا فـردريك الثـاني ، كمخلص في الأيام الأخيرة ؟) : لقد بلغ الحج الكبير المانيا الآن ، وأي كاهن يهمل في دينونته أن ينقل الرسالة الالهية لجموع المصلين التابعين له سيكون ملعونا إلى الأبد بشكل مؤكد .

ولا يمكن للمرء إلا أن يتذكر تلك الرسالة السماوية الأخرى التي بواسطتها بعد قرنين ونصف القرن كان على ثـائر الراين الأعلى أن يحاول أن يستحضر أخوة الصليب الأصفر المعادية للاكليروس ، وفي حين كان فيه اللطامون الايطاليون دائما محكومين بحزم مـن قبـل الاكليروس ، كان اللطامون الألمان قد انقلبوا في الواقع بسرعة ضـد الكنيسة ، وكان الألمان كالايطـاليين عارفين بـالنبوءات اليواكمية الزائفة وتوقعوا القدر نفسه بالضبط مـن السـنة الرؤوية ١٢٦٠ ، ولكنهم مالوا لأن يكونوا أكثر عنفا تجـاه الاكليروس وأكثـر عنادا وتصلبا بكثير في رفضهم لروما ، ولم تمض سوى سـنوات قليلة منذ أعلن الأخ الألفي السوابياني أرنولد أنه هو و أتباعه كانوا الجماعة المقدسة التي ستستولي على السلطة كلها من كنيسة المسيح الدجال في ١٢٦٠ .

وإذا مات فردريك الثاني في تلك الفترة الفاصلة ، وبدأت فترة خلو

العرش فإن هذا متن فقط الشوق بين جموع الالمان إلى مملكة الفية للقديسين ، وانتهت الحركة بأن أصبحت احتكارا للفقراء ، للنساجين ،و الاسكافيين والمشتغلين بالمعادن وامثالهم ، وما أن اصبحت كذلك حتى تحولت إلى مؤامرة ضد الاكليروس ، وبدأ اللطامون بالادعاء انهم قادرون على تحقيق الخلاص بجدارتهم وبدون مساعدة الكنيسة (ص ١٣١) وأن مجرد عملية الاشتراك في احد مواكبهم تحل المرء من كل ذنوبه ، وسرعان ماانهمك رؤساء الأساقفة والأساقفة في عمليات حرمان وطرد هؤلاء التائبين الخطرين مع مساعدة من أمراء دنيويين مثل دوق بافاريا في عمليات القمع .

وفي المانيا وجنوب اوروبا على السواء استمرت جماعات اللطامين في الوجود على مدى قرنين من الزمان واكثر بعد ظهورها الأول ، ولكن نشاطهم ومنزلتهم في المنطقتين اختلف بقدر كبير ، وفي إيطاليا وجنوب فرنسا ازدهرت جماعات اللطامين علنا في كل مدينة هامة ، وكانوا بشكل عام اصوليين متشددين في آرائهم الدينية ، وتمتعوا بالاعتراف من كل من السلطتين المدنية والكهنوتية ، وفي المانيا من جانب آخر كانت مثل هذه الجماعات موضع شك دائما في ميولها الانشقاقية ، وكثيرا في ميولها الثورية ، وليس بلا سبب جيد ، واستمرت الحركة التي كانت مقموعة في ١٢٦٢ في الوجود سرا ، وفي ١٢٩٦ عندما كانت المدن الواقعة على الراين تعاني من اسوأ مجاعة منذ ثمانين عاما ، ظهر هناك فجأة لطامون يرتدون لباسا موحدا وينشدون التراتيل ، عندما زحفت أكبر حركات اللطامين في كل الأزمنة خلال المانيا كلها في ١٣٤٨ ـ ١٣٤٩ ، تحولت ايضا لتختص بالطقوس والأغاني ، وحتى الرسالة السماوية نفسها نادرا ماعدلت أصلا ، مما يبدو انه برهان على أن بعضا ـ على الأقل ـ من قادتها قد جاءوا من حركة سرية ، واستطاعوا أن يستمدوا منها بعض التقاليد .

وقد عجل الموت الأسود بانفجار ١٣٤٨ ـ ١٣٤٩ ويبدو أن وباء

الطاعون الدملي هذا قد نشأ في الهند وأنه انتقل برا إلى البحر الأسود ، ومن هناك عن طريق السفن إلى البحر المتوسط ، وفي أوائل ١٣٤٨ كان متفشيا في موانيء إيطاليا وجنوب فرنسا ، ومن شواطيء غرب أوروبا انتقل ببطء على طول طرق التجارة حتى بلغ كل البلاد باستثناء بولونيا التي أقامت حجرا صحيا على حدودها ، وبوهيميا التي حمتها الجبال ، وفي كل منطقة استمر الوباء من أربعة إلى ستة أشهر وتفشى بدرجة كبيرة في المدن المزدحمة متغلبا على كل الجهود لكبح جماحه ، وترأصت الجثث بلا دفن في باحات الكنائس ، ويبدو مؤكدا انه باصطلاحات معدلات الوفيات كان هذا الوباء بلا منازع أكبر كارثة حلت بغرب أوروبا في السنوات الألف الأخيرة ، وكان أكبر بكثير مما نجم عن الحربين العالميتين معا في القرن الحالي ، وتقدر السلطات المسؤولة حديثا أنه في ١٣٤٨ ـ ١٣٤٩ هلك نحو ثلث السكان .

وقد فسر الوباء وفق الطراز الطبيعي للعصور الوسطى على انه عقاب إلهي بسبب خطايا وانتهاكات العالم الآثم ، وكانت مواكب اللطامين(ص ١٣٢) من بعض الجوانب محاولة لصرف العقاب ، وأضيفت فقرة جديدة إلى الرسالة السماوية لتأكيد هذه النقطة ، وكانت الاشاعة وهاجس الوباء وليست معاناته هي التي أوجدت المواكب ، وقد اعتاد الناس على غيابها فترة طويلة قبل أن يحل الوباء نفسه ، ومن هنغاريا ، حيث يبدو أنها بدأت في أواخر ١٣٤٨ انتشرت الحركة نحو الغرب لتزدهر فوق كل شيء في مدن وسط وجنوب المانيا وأخيرا في مدن وادي الراين ، حيث شعت من جانب إلى وستفاليا ومن الآخر إلى برابانت وهنيوت وفلاندرز وفرنسا حتى قمعها الملك ، ومن البلاد المنخفضة انتقلت فرقة في سفينة إلى لندن حيث قامت بعرض أمام كاتدرائية القديس بولص ، ولكن في انكلترا لم تجد الحركة اتباعا.

وبأخذ الطريقة التي عملت بها الحركة في الاعتبار نجدها قد انتشرت بسرعة ، وفي أذار مثلا وصلت إلى بوهيميا ، وفي نيسان

إلى ماغدبرغ ولوبك وفي أيار إلى ووزبرغ و أوغسبرغ وفي حزيران إلى ستراسبورغ وكونستانس وفي تموز إلى فلاندرز ، ومع ذلك إنها لم تتحرك في زحف ثابت ، وكانت التيارات الرئيسية مليئة بتيارات صغيرة وتيارات متقاطعة ودوامات ، وتقدم اللطامون في فرق متفاوتة الحجم بين خمسين إلى خمسمائة أو أكثر ، وفي ستراسبورغ كانت فرقة جديدة تصل كل أسبوع على مدى نصف سنة ، ويقال إن نحوا من الف من البورجوازيين قد انضموا إليهم ، ورحلوا بعضهم إلى أعلى النهر ، وبعضهم الآخر إلى أدناه ، وكانت فرقة جديدة تصل إلى تورناي كل بضعة أيام من منتصف اب حتى بداية تشرين الأول ، وفي الأسبوعين الأولين من تلك الفترة كانت الفرق تصل إلى هناك من بروغ ، وغنت ، وسلوذير ، ودوردرخت ولييج ثم انضمت تورناي نفسها وأرسلت فرقة في اتجاه سواسون ، وكي نفهم الحركة ككل يجب أن يتصور المرء عددا من المناطق تمر واحدة بعد الأخرى في حالة من الهياج الانفعالي الذي يبقى بكامل قوته نحو ثلاثة شهور ثم يخمد تدريجيا، وفي الشرق حيث بدأت الحركة ، انتهت بحلول منتصف السنة ، وفي وسط المانيا بدأت تتضاءل بسرعة بعد ذلك ، وفي البلاد المنخفضة وشمال فرنسا استمرت حتى أواخر الخريف ، ولابد أن عدد الناس الذين شاركوا في مرحلة أو أخرى كان كبيرا ، ويصعب الحصول على الأرقام ، ولكن يروى بشكل يمكن الاعتماد عليه أن ديرا واحدا في البلاد المنخفضة كان قد أصبح مركزا للحج للطامين كان عليه أن يقدم الطعام لنحو ٢٥٠٠ في نصف سنة وأن اللطامين الذين كانوا قد وصلوا إلى تورناي في شهرين ونصف الشهر بلغوا ٥ر٣٠٠ . ويقال أيضا ـ ربما مع شيء من المبالغة ـ إنه عندما رفضت ارفورت أن تفتح ابوابها للطامين عسكر نحو ٣٠٠٠ خارج الأسوار .

والذي جعل من هذه الحشود من اللطامين شيئا أكثر من الوباء ، شيئا ربما يمكن تسميته (ص ١٣٣) هنا حركة ، كان الطريقة التي نظمت بها ، وباستثناء ماكان عليه الحال في المرحلة الأخيرة في الأراضي المنخفضة ، كانت هذه المنظمة موحدة المظهر على نحو

فريد ، وكان للطامين اسم جماعي ، وكانوا يدعون أنفسهم حملة الصليب أو الأخوة اللطامين – أو مثل صليبي ١٣٠٩ – أخوة الصليب ، ومثل أسلافهم في ١٢٦٢ – و من هذه الناحية مثل الصليبيين – كانوا يرتدون لباسا موحدا ، و كان في هذه الحالة ثوبا أبيض مع صليب أحمر من الأمام ومن الخلف مع قبعة أو قلنسوة مميزة بالشكل نفسه ، وكان يقود كل فرقة من اللطامين قائد كان في الغالب ، من العلمانيين ، وكان هذا المعلم أو الأب ، كما كان يسمى ، يستمع إلى اعترافات الأعضاء و – كما لاحظ الاكليروس بفزع – يفرض الكفارات ويمنح الغفران ، سواء أثناء الجلد العلني أو في الخفاء ، وكان على كل عضو أن يقسم على الطاعة المطلقة لمعلمه طيلة فترة الموكب ، وكانت هذه الفترة ثابتة : وباستثناء بعض المواكب المحلية القصيرة في البلاد المنخفضة التي كانت تنظمها الكنيسة ، كانت دائما ٣٣ر٥ يوما صوفيا وخلال تلك الفترة كان اللطامون يخضعون لنظام قاس ، إذ لم يسمح لهم ، بالاستحمام أو الحلاقة أو تغيير الملابس أو النوم في فراش ناعم ، وإذا قدمت لهم الضيافة يمكنهم فقط غسل أيديهم عندما يركعون على الأرض كرمز للتواضع ، ولم يسمح لهم بالتحدث مع بعضهم بدون إذن من المعلم ، وفوق كل شيء كانوا ممنوعين من أي تعامل مع النساء ، وعليهم أن يتجنبوا زوجاتهم ، وفي المنازل التي يسكنونها لم يسمح بخدمة النساء لهم على المائدة . وإذا نطق اللاطم بكلمة واحدة لامرأة كان عليه أن يركع أمام معلمه ، الذي يضربه وهو يقول له :« انهض بحق شرف الشهادة الطاهرة ، ومن الآن فصاعدا راقب نفسك ضد الخطيئة»!

و اعتاد اللطامون لدى وصولهم إلى اي مدينة أن يأخذوا طريقهم الى الكنيسة و يشكلوا حلقة أمامها ، ويخلعوا ثيابهم واحذيتهم و يلبسوا مئزرا قصيرا يمتد من الخاصرة الى القدمين ، ثم يبدأون بأداء طقس كان على الرغم من بعض الاختلافات المحلية قياسيا بشكل ملحوظ حيث يسير التائبون في دائرة ويلقون بأنفسهم واحدا بعد الآخر على وجوههم ، ويرقدون بلا حراك واذرعتهم ممدودة على

شكل صليب ، ويخطو الذين في الخلف فوق الأجساد المنبطحة ، وهم يضربونها بلطف باسواطهم وهم يمرون ، ويرقد الرجال من ذوي الذنوب الكبيرة التي تتطلب التكفير و المغفرة في اوضاع ترمز الى انتهاكاتهم ، وفوق اجساد هؤلاء يخطو المعلم نفسه ، وهو يضربهم بسوطه وهو يكرر صيغته للغفران ، « انهض بحق شرف الشهادة الطاهرة » .

وعندما ينبطح اخر الرجال يقف الجميع على اقدامهم ويبدا الجلد ، فيضرب الرجال انفسهم بايقاع بسوط جلدي مسلح باشواك حديدية وهم ينشدون التراتيل في تلك الاثناء احتفالا بآلام المسيح ومجد العذراء ، وكان ثلاثة رجال (ص ١٣٤) يقفون في مركز الدائرة يقودون الغناء وفي مقاطع معينة ثلاث مرات في كل ترتيلة ، يرتمي الجميع ارضا كما لو كانوا قد اصيبوا بصاعقة وينبطحون بانرع ممدودة وهم ينتحبون ويصلون ، وكان المعلم يسير بينهم ويأمرهم بالابتهال الى الرب ليرحم كل الخاطئين وبعد برهة يقف الرجال ويرفعون ايديهم نحو السماء وينشدون ثم يعاودون جلد انفسهم ، واذا حدث مصادفة ان دخلت امراة او كاهن الدائرة يصبح اللطم كله غير صالح ويجب ان يعاد من البداية ، وفي كل يوم تجري عمليتا لطم كاملتين أمام الناس ، وكل مساء تجري ثالثة في الخفاء في غرفة النوم ، وكان اللطامون يقومون بعملهم باجتهاد حتى انه كثيرا ما تنغرس الاشواك في اللحم وتحتاج لانتزاعها ، وكانت دماؤهم تتناثر على الجدران وتتحول أجسادهم الى كتل من اللحم الأزرق .

وكانت جماهير السكان تنظر بتقدير إيجابي الى اللطامين ، وحيثما ذهب التائبون كانت تتدفق عليهم الحشود للمشاهدة والاستماع الى الطقوس المقدسة والضرب المخيف ، والتراتيل - ربما المرات الوحيدة التي سمعت حتى الآن في لغة قابلة للفهم من قبل الجماهير - وعند الأوج كانت تلاوة الرسالة السماوية تحدث تأثيرا غامرا ، حتى أن كل المستمعين كان

يغمرهم النحيب و التأوه ، و لم تكن مصداقية الرسالة موضع تساؤل ، وكان ينظر الى اللطامين ـ كما كانوا يرون في انفسهم – لا كمجرد تائبين يكفرون عن خطاياهم ، بل كشهداء ياخذون على عاتقهم خطايا العالم وبذلك يتجنبون الوباء ، وإبادة الجنس البشري في الواقع ، وعندما كان موكب اللطامين يقترب من مدينة من المدن كانت تقرع النواقيس ، وعندما ينتهي اللطم كان السكان يهرعون لدعوة المشتركين الى منازلهم ، وكان الناس يسرون بالاسهام في تكاليف الشموع والأعلام وحتى السلطات المدنية كانت تنفق بحرية من الأموال العامة .

إنها قصة الرعاة ، وكما في كل الأوقات منذ بدات الحضارة في الانتعاش والثروة المادية في الازدياد ، لم تكن الجماهير المدنية راضية عن الكهنة الذين ـ بأي عدالة ـ لم ترفيهم سوى الدنيوية وعينات الانتقادات التي كان منتشرة في تلك الأيام من منتصف القرن الرابع عشر ، وحفظت في تعابير الكهنة أنفسهم ، يقول أحدهم :« لقد تغلغل بيع وشراء المناصب الكهنوتية بعمق كبير وترسخ ، حتى أن رجال الاكليروس المدنيين والنظاميين سواء من المراتب العليا أو الوسطى أو الدنيا ، كانوا يبيعون ويشترون الوظائف الكهنوتية بلا خجل ، (ص ١٣٥)وحتى علنا دون تأنيب من أحد ، ناهيك عن العقاب ، وبدا كما لو أن الرب بدلا من طرد البائعين والمشترين من المعبد ، قد وضعهم بالحري ، داخله ، كما لو أن بيع المناصب الكهنوتية يجب أن لا يعتبر هرطقة بل كذسيا وكاثوليكيا ومقدسا ، وكانت الأوقاف الكذسية أو بيوت الكهنة ومناصبهم ومناصب رعاة الأبرشيات و حتى الأبرشيات و الكنائس الأبرشية و المذابح تباع لقاء المال أو تستبدل بالنساء والعشيقات ، أو يراهن عليها وتخضع للربح والخسارة في لعبة نرد . وكانت مرتبة ومهنة كل فرد تعتمد فقط على المال والنفوذ أو اعتبارات الربح الأخرى ، وكانت اديرة الراهبات والرهبان ورعايتها ، والوصاية عليها وادارة المدارس وحتى المحاضرات تباع من قبل الأساقفة أو مجلس الكرادلة التابع للبابوية الى رجال من

عديمي الكفاءة . خام ، جهلة صغار السن وبلا خبرة ، تباع بكل ما يمكنهم تحصيله سواء من السرقة أو الوسائل الأخرى ، أو ربما يغتصبونه بأي طريقة أخرى ، ومن هنا ليس من السهل الآن ان نجد بين شخصيات الكهنوت المدني والنظامي من يمكن احترامه مع شيوع هذا واعتماده بشكل عام ، انظر الى رؤساء أديرة الرهبان وأديرة الراهبات وأديرة الفرنسيسكان ورؤساء الكنائس والكهنه والمعلمين المحاضرين وتنهد! انظر الى حياتهم ومثلهم وسلوكهم وتعاليمهم والأوضاع الخطرة لهؤلاء في مهامهم وارتجف! اشفق علينا أيها الرب ، يا ابا الرحمة ، إننا اثمنا تجاهك »

وصاح كاهن آخر : « كم أصبحت حالة الكنيسة مزرية ! إن رعاة الأبرشيات يطعمون انفسهم بدلا من قطعانهم ، والقطعان التي يجزونها ، أو انهم بالأحرى يسلخونها ، إنهم لا يتصرفون كرعاة بل كذئاب ! لقد هجرت المحاسن كلها كنيسة الرب ، فلا بقعة صحيحة فيها من التاج الى النعل »!

والمدى الدقيق الذي يمكن بلوغه في تسويغ هذه الشكاوى غير ذي موضوع وما هو مؤكد أن العامة لم يكن باستطاعتهم بسهولة ان يجدوا بين الكهنة ما كانوا في أمس الحاجة اليه ، لقد كانوا محتاجين الى رجال من ذوي الطها رة الدينية ، ممن يضمن زهدهم بوضوح قدراتهم في صنع المعجزات وبدا أن اللطامين من جانب آخر هم هؤلاء الأطهار ، وقد أدعوا أنفسهم أنهم خلال جلدهم لم يكونوا فقط متحررين من كل خطيئة ومطمئنين من السماء بل كانوا مدعمين لطرد الشياطين ، وشفاء المعلولين وحتى إحياء الموتى ، وكان هناك لطامون يدعون أنهم يأكلون ويشربون مع المسيح ويتحدثون الى العذراء ، وادعى واحد على الأقل بأنه بعث من الموت ، وكانت كل هذه الادعاءات تتقبل بلهفة من قبل الأهالي ، ولم يحضر الناس مرضاهم فقط ليتلقوا الشفاء من هؤلاء الرجال المقدسين ، بل كانوا يغمسون الثياب في الدم السائل منهم ويحفظونها كآثار مقدسة وكان الرجال والنساء على السواء يتوسلون كي يسمح لهم بضغط هذه

الملابس على عيونهم ، وفي إحدى المناسبات حمل طفل ميت حول الدائرة أثناء عملية الجلد على أمل بعثه من الموت ، وكان أينما ظهر اللطامون في المانيا كانت العامة من الناس ولا سيما في مراكز الصناعه والتجارة تنظر اليهم على أنهم رجال الرب وكانوا في الوقت نفسه يلعنون الاكليروس وقدم هذا للطامين الفرصة التي كان العديد منهم ينتظرها(ص ١٣٦).

لطامون ثوريون

وحدث فقط في أماكن محدودة من الأراضي المنخفضة أن تمكن الاكليروس من السيطرة بشكل فعال على حركة اللطامين في عام ١٣٤٩ ، وانتهت هذه الحركة في أجزاء أخرى من البلاد المنخفضة وفي كل المانيا الى حركة مقاتلة متعطشة للدماء تسعى وراء الالفية .

وكانت تلك اللحظة الأكثر مواءمة لمثل هذا التطور ، لأن التوقعات الأخروية كانت منتشرة على نطاق أكثر اتساعا وشدة ، ولم يكن مصادفة في تلك السنوات ، أن أكثر المسرحيات الألمانية المتعلقة بالمسيح الدجال شهرة ، كانت قد صنعت وعرضت ، وكان الناس في ١٣٤٨ بالفعل يفسرون الهزات الأرضية في كارنثيا وايطاليا على انها المحن المسائحية التي تعلن عن اقتراب الأيام الأخيرة ، وحتى إذا لم يخبر المرء بذلك بوضوح ، فإنه كان يفترض بأن الكارثة المروعة الفريدة للموت الأسود يمكن أن تفسر في المعنى نفسه ، وفي الحقيقة إن معاناة عدم الأمن الشامل ، والارتباك والقلق كان له الأثر ـ كما كان كثيرا جدا ـ على زيادة الاثارة الأخروية بين الجماهير ، الى وتيرة الحمى ، وكانت مواكب اللطامين تظهر في الدراما المتعلقة بانهيار العالم وتحوله في الأيام الأخيرة التي كانت تتكشف الآن عن هولها وقوتها : « لقد حكم الوباء عامةالناس وقضى على العديد منهم واهتزت الأر ض واحرق رجال من اليهود •

كان عدد كبير وغريب من الرجال نصف العراة يضربون أنفسهم، وبالطبع كمنت وراء هذه المحن الألفية ،وكان العديد من الناس يعيشون في توقعات مجيء المسيح المحارب ، كما حدث فيما بعد في فتنة ثوار الراين الأعلى ، وبالضبط في ١٣٤٨ يذكر جون أوف ونترثر كيف كان الناس بشكل عام وبلهفة يتوقعون بعث الأمبراطور فردريك الذي سيذبح الكهنة ويجبر الأغنياء على الزواج من الفقراء ، وفي تلك السنة ايضا كان يفترض أن أحد « المنجمين الكبار » قد تنبأ ليس فقط بوباء الطاعون بل أيضا بمجيء امبراطور سيشتت ويحاسب البابا وكرادلته ويطيح بملك فرنسا ، ويمد سلطانه ويثبته فوق جميع أنحاء البلاد.

ومن المؤكد أن عددا كبيرا من اللطامين انفسهم عاشوا في عالم من خيالات الألفية ، وروى مؤرخ معاصر أن مواكب ١٣٤٩ التي كان كل منها يدوم ٣٣.٥ يوما كانت تعتبر مجرد بداية ، وكانت الحركة ككل تعتزم الاستمرار ٣٣.٥ سنة بانقضائها(ص ١٣٧) تكون النصرانية قد انقذت ،وكشف تحري معتقدات اللطامين في برسلاو أيضا انشغالا بالألفية ، وكان التائبون هناك يرون كيف أن مراتب الرهبنة والأخوانيات الرهبانية الموجودة ستتعرض لمحن عظيمة حتى يتم مرور سبع عشرة سنة (نصف مدة التحول الكلية!) وعندها سيتم استبدالها بمراتب رهبانية جديدة تبقى حتى النهاية ، وهذه بالطبع نبوءة موجودة في التقاليد اليواكمية ، وعند هذه النقطة مفيد التذكير بعودة ظهور الرسالة السماوية التي سلمت هي نفسها منذ ١٢٦٠ ، السنة الرؤوية للنبوءة اليواكمية .ولم يكن للاشيء أن مثل هذه الوثيقة قد أصبحت بيانا لحركة اللطامين لأنه من المؤكد أنه عندما كان اللطامون يتحدثون عن حركة رهبانية جديدة ذات قدسية فريدة ، إنما كانوا يشيرون الى انفسهم فقط. لقد رأى هؤلاء الناس حقا في انفسهم اناسا مقدسين وجديشا من القديسين ، انهم لم يسموا أنفسهم ببساطة حملة الصليب واخوه الصليب فخلال ايقاعهم العذاب بأنفسهم كانوا يتغنون بآلام المسيح ، بل كثيرا مامضوا الى أبعد من هذا بكثير مدعين أن المسيح

بنفسه قد أراهم جراحه الدامية ، وأمرهم أن يقوموا بضرب أنفسهم ، وكان بعضهم حتى يقول صراحة ، إن أي سفك دماء لا يمكن أن يقارن بسفك دمائهم سوى ما جرى عند صلب المسيح ، وأن دمهم قد اختلط بدم المسيح . وان كليهما كان له القوة المخلصة نفسها .

وكما يمكن أن يتوقع ارتبط تطور هذه التخيلات بتبدل في التركيب الاجتماعي لمواكب اللطامين ، فلقد كانت الحركة دائما مؤلفة في أساسها من الفلاحين والحرفيين ، ولكن حيث أن النبلاء والبرجوازيين الأغنياء شاركوا فيها أيضا في البداية ، وهم بخروجهم منها تغير طابعها بفعل جمهور المجندين الجدد من حواشي المجتمع من المتشردين والمفلسين والخارجين على القانون والمجرمين من كل الأنواع ، وفي الوقت نفسه انتقلت الزعامة الى ايدي عدد من المتنبئين الذين كانوا الى حد كبير يتألفون من الكهان المنشقين والمرتدين ، وعندما قرر البابا في النهاية أن يصدر بيانا ضد اللطامين جعل من الواضح إنه يعتبر الغالبية اناسا بسطاء ضللوا من قبل المهرطقين الذين ، كانوا هم أنفسهم فقط يعرفون جيدا ما يفعلون ، واضاف ان المهرطقين يضمون اعدادا من الرهبان والأخوة الرهبانيين وان هؤلاء يجب القبض عليهم حتما ، وعبر مؤرخ من البلاد المنخفضة ايضا عن هذه الفكرة ، بان الحركة قد نظمت بهدف القضاء على الاكليروس والكنيسة ، من قبل رهبان مرتدين في المانيا ، وبعد اختفاء الحركة عن الأنظار بثلاث سنوات ، كان رئيس اساقفة كولون ما يزال يهدد بالحرمان الشماسة والكهنة الأدنى ، الذين شاركوا فيها ، مالم يقدموا شهودا يقسمون على براءتهم (ص ١٣٨) وظهر الذي وقف وراء هذه الاتهامات في احداث برسلاو ، وهي مدينة جاهر اللطامون فيها علنا بمعتقداتهم اليواكمية ، ومن المعروف أن الزعيم هناك كان شماسا حرض اتباعه على مهاجمة الاكليروس وانتهى بحرقه كمهرطق .

ومع تحول اللطامين الى حركة مسائحية جماهيرية أصبح

سلوكها شبيها بسلوك اسلافها في الحركة الصليبية الشعبية ، و انتهى اللطامون الالمان بشكل خاص بأن أصبحوا اعداء متصلبين للكنيسة ولم يدينوا الاكليروس فقط بل انكروا تماما ادعاء الاكليروس سلطة سامية غير طبيعية ، وانكروا أن يكون للقربان المقدس أي معنى ، وعندما قدم القربان للحشود رفضوا إظهار أي احترام له ، لقد قاموا بتطبيق مقاطعة الصلوات والخدمات في الكنيسة ، قائلين بأن احتفالاتهم وتراتيلهم وحدها هي التي لها قيمة .لقد وضعوا أنفسهم فوق البابا و الاكليروس على أساس أنه في الوقت الذي يمكن فيه للأكليروس أن يرجعوا فقط الى الانجيل والآثار كمصدر سلطتهم ، تعلموا هم أنفسهم مباشرة من روح القدس التي أرسلتهم عبر العالم ، وقد رفض اللطامون مطلقا سماع النقد من أي كاهن ، بل على العكس - تماما كاستاذ هنغاريا - أعلنوا أن أي كاهن يعارضهم يجب سحبه من على منبر وعظه وحرقه على الخازوق ، وعندما غامر اثنان من الدومينكيان بالجدال مع اللطامين رجما فقتل أحدهما ونجا الآخر بالهرب ، وحدثت احداث مماثلة في اماكن أخرى ، وفي بعض الأحيان كان اللطامون يحثون الناس على رجم الاكليروس بالحجارة ، وكل من يحاول تهدئة ثائرتهم ضد الكنيسة ، بما في ذلك أعضاء جماعتهم ، كان يفعل ذلك مخاطرا بنفسه ، وشكا البابا من أن هؤلاء التائبين كانوا كلما وجدوا الفرصة انتهزوها فكانوا يستولون على الممتلكات الكهنوتية لصالح أخوتهم ، وقال مؤرخ فرنسي كانت حركة اللطامين ترمي الى تدمير الكنيسة تماما ، والاستيلاء على ثرواتها ، وقتل كل الاكليروس ، وليس هناك من دليل على أن أيا منهما كان يبالغ.

وكالمعتاد عانى اليهود الى جانب الكهنة وبدرجة أكبر بكثير ، وفي المذبحة الكبرى ليهود اوربا التي رافقت الموت الأسود - وهي الأكبر قبل القرن الحالي - شغل اللطامون دورا هاما ونفذت عمليات القتل الأولى تلقائيا من قبل جماهير كانت قانعة بأن اليهود قد سببوا الوباء بتسميم الآبار ، وانتهت بحلول آذار ١٣٤٩ ربما

لأن الناس في ذلك الوقت قد لاحظوا أن الطاعون كان يصيب اليهود بالقدر نفسه الذي كان يصيب به المسيحيين ، وانه لم يوفر المناطق التي قتل فيها اليهود بالفعل ، وبعد ذلك بأربعة شهور انطلقت موجة جديدة من الذبح بفعل دعاية اللطامين ، وحيثما قامت السلطات حتى الآن بحماية اليهود أخذت هذه الحشود الآن تطالب بذبحهم.

وعندما دخل اللطامون في تموز ١٣٤٩ فرانكفورت اندفعوا راسا الى الحي اليهودي ، حيث انضم اليهم اهالي المدينة في ابادة الطائفة ، وقد اقلقت الحادثة السلطات حتى انهم اخرجوا التائبين من المدينة وعززوا البوابات لمنعهم من العودة ، وبعد ذلك بشهر حدثت مذبحة متزامنة في مينز وكولون ، واثناء موكب للطامين في مينز هرولت حشود النظارة فجأة بشكل مسعور لتلقي بنفسها على اليهود ، وكانت النتيجة ان الطائفة الاكبر لهم في المانيا قد ابيدت ، وفي كولون دخلت فرقة من اللطامين كانت معسكرة لبعض الوقت في الخارج الى المدينة وجمعت حشدا كبيرا ممن ليس لديهم مايفقدونه ، وضد رغبة مجلس المدينة والبرجوازيين الأغنياء هاجمت هذه الحشود اليهود وقتلت كثيرا منهم .و في بروكسل ايضا ادى اقتراب اللطامين المتزج بشائعات تسميم الآبار إلى قيام مذبحة قتل فيها كل افراد الطائفة اليهودية وعددهم ٦٠٠ ،وذلك على الرغم من جهود دوق برابانت لحمايتهم ، وفي مناطق واسعة عبر البلاد المنخفضة كان اللطامون بمساعدة حشود الفقراء ، يحرقون ويغرقون كل من يمكنهم العثور عليه من اليهود « لانهم كانوا يعتقدون بانهم يفرحون الرب بهذه الطريقة ».

إن المصادر ضئيلة ، ويستحيل القول كم هوعدد مثل هذه المذابح التي قادها او اثارها اللطامون خلال النصف الثاني من سنة ١٣٤٩ ؛ ولكن لابد انها كانت كثيرة ، واصبح اليهود انفسهم يعتبرون اللطامين اسوأ اعدائهم ، في حين اطلق البابا احدى شكاياته الرئيسه ضد اللطامين من « ان معظمهم ، او معظم

اتباعهم ، دون مظهر الورع ، وانهم يطلقون ايديهم في اعمال قاسية غير تقية ،و يسفكون دماء اليهود ، الذين تقبلهم التقوى المسيحية وتدعمهم »، ومن شبه المؤكد انه في الوقت الذي انهى فيه اللطامون عملهم الذي اثاره هلع ١٣٤٨ ، كان هناك بقية ضئيلة جدا من اليهود في المانيا والبلاد المنخفضة ، وقد اكملت مذابح ١٣٤٨ ـ ١٣٤٩ تدهور وضع اليهود الذي بدأ في ١٠٩٦ ، وخلال بقية العصور الوسطى بقيت الطوائف اليهودية في المانيا صغيرة وفقيرة ، ومدانة بعزل الحي اليهودي عن المجتمع .

هل كان اللطامون يعتزمون ايضا القضاء على ذلك العدو التقليدي ، ذلك المشخص في دايفز ؟ هل كانوا يعتزمون مثل الجماهير الاخرى التي كانت تستلهم الايمان بالاخرويات ، القضاء على الاغنياء واصحاب المزايا ؟ لقد اتهمهم البابا بسلب وقتل العلمانيين مثلما قتلوا الكهنة واليهود ، في حين ان احد المؤرخين يخصص بأن اصحاب الثراء فقط الذين (ص ١٤٠) هوجموا ، وبالتأكيد قدر لهذه الجموع ان تصبح في النهاية موضع خشية « العظيم » مثل ماكان الرعاة .

ففي فرنسا حظر فيليب الخامس اللطم العلني تحت طائلة الموت ، وبذلك اصبح قادرا على منع الحركة من التوغل لاعمق من بيكاردي ، وفي المانيا اغلقت بعض المدن مثل ارفورت ابوابها في وجه جموع اللطامين ، في حين ان اخرى مثل اخن ونورمبرغ توعدت بالموت اي لطام يوجد ضمن اسوارها ، وماتخوفت منه هذه السلطات المدنية يظهر بوضوح كاف من قصة اللطم الصغرى التي صاحبت تفجرا جديدا للطاعون في ١٤٠٠ ، ففي تلك السنة سجن اللطامون في فيزيه على الماس ، ولقوا مقاومة من مدينة تونغرين ، وتم قمعهم في غنت من قبل كونت فلاندرز ، وعندما اقتربت فرقة من اللطامين من ماستريخت حاول الاثرياء من البرجوازيين اقفال البوابات في وجهها ، ولكن البروليتاريا من قصاري القماشن هبوا وقضوا على الحكام ومؤيديهم ، وسمحوا للتائبين ، ثم بعد ان تقووا بوجود

هؤلاء الرجال المقدسين ، اقفلوا البـوابات في وجـه الحـاكم المطلق للمدينة ، اسقف لييج .

وبحلول النصف الثاني من سنة ١٣٤٩ اصبحت حركة اللطامين قوة بالفوضويه نفسها للثـورتين الكبيرتين للرعاة ، وحـركت ضـد نفسها ائتلاف القوى المدنية والاكليروسـية نفسـه واتجـه امـراء واساقفة المناطق التي ازعجهـا اللطـامون الى السـوربون طالبـا للنصيحة ، واحالت السوربون الامر الى البابا في اڤينيون غير انهـا ارسلت اليه ايضا احد دكاترتها ، الراهب الفلمنكى جين دي فايت ، الذي درس الحركة في وطنه ، وعندما بلغ الوباء جنوب فرنسا للمـرة الاولى ، في ايار من السنة السالفة اقام كليمنت السادس حفلة لطـم عامة اشتركت فيها اعداد كبيرة من الجنسين ، وفيما بعد ادرك خطر هذه الحفلات ، وهكذا قوبلت احدى فرق اللطـامين التـي كانت قـد وصلت الى اڤينيون من بازل بالتعنيف ، واثـار الان تقـرير فـايت استجابة فورية ، ففي تشرين اول ١٣٤٩ ،اصدر البـابا مـرسوما ضد اللطامين ، وبعد تلخيص اوهامهم وغلوهم المذهبي واسـاءاتهم تجاه الاكليروس واليهود اشار المرسـوم الى ان هؤلاء الناس كانوا بالفعل يتجاهلون السلطات المدنية ، واضاف انهم اذا لم يقاموا الان فانهم قد يصبحون مستعصين على المقـاومة ، لهـذا يجـب قمـع هذه « الزمرة » من « معلمي الخطيئة كما ينبغي اعتقـال الذين احكموا بناء عقائدهم وان يحاسبوا بـالحرق اذا لزم الأمـر ، وقـد ارسل المرسوم الى رؤساء الاساقفة في المانيا ، وبولونيا وفـرنسا ، وانكلترا والسويد وتبعته رسائل الى ملوك فرنسا وانكلتـرا واعلنت جامعة باريس الان ايضا ادانتها الرسمية ، واسرع الكهنة بـكتابة رسائل دعائية ضد اللطامين (ص ١٤١)

وكان تأثير المرسوم فوريا ، ومنع رؤساء الاساقفة والاساقفة في كل المانيا والبلاد المنخفضة قيام المزيد من حفلات اللطم ، وجرد كثير من كهنة الابرشيات والقسس وحرموا من الكنيسـة واتجهـوا الى

افينيون لالتماس الغفران ، وتعاونت السلطات المدنية بحماس لكبح الحركة .

واما المدن التي كان اللطامون مايزالون يترددون عليها ، فقد اتخذت الاجراءات للتخلص منهم ، ونسمع عن لطامين قطعت رؤوسهم بأمر من احد الكونتات ، وعن عدد كبير شنقوا في وستفاليا ، وبناء على امر من رئيس الاساقفة قامت السلطات المدنية في ابرشية ترييز باعدام اللطامين وكادت ان تبيدهم ، وتحت ضغط الاضطهاد هجر معظم التائبين بسرعة حركتهم وبعبارات احد المؤرخين « اختفوا فجأة كما ظهروا فجأة كأشباح الليل او اشباه الاشباح ، ومزق بعضهم فعلا لباسهم الموحد وهربوا» ، وفي السنة التالية التي حدث ان كانت سنة مقدسة كان العديد يؤدون الكفارة بالضرب ولكن هذه المرة من قبل الكهنة ، امام المذبح العالي للقديس بطرس في روما ، ومع ذلك فقد تخلفت الحركة هنا وهناك ، ووجد في مدينة تورناي ضرورة لتجديد حظرها من حين لاخر حتى ١٣٥١ ، وكان اسقف اوترخت مايزال يلاحق اللطامين في ١٣٥٣ ، وكان على رئيس اساقفة كولون ان يتعامل معهم في ١٣٥٣ ، ومرة اخرى في ١٣٥٧ ، وبعد ذلك لم يعد يسمع شيء عن اللطامين في تلك المناطق الغربية .

وفي اطار الايمان الشعبي بالاخرويات تثير قصة حركة اللطامين في ١٣٤٩ تساؤلا واحدا واضحا : هل كان هناك في مكان ما في المانيا بين المخلصين الذين عينوا انفسهم من حاول بوساطة حركة اللطامين ، احداث حالة قلق عام ، يمكنه ان ينتحل فيها علنا دور المخلص الاخروي ؟ولسوء الحظ ان المصادر المتوفرة لاتقدم جوابا ، ويمكن للمرء فقط ان يشير الى حركة لطم اصغر ظهرت في ايطاليا قبل بضع سنوات وهربت ايضا من السيطرة الكهنوتية ،وفي هذا المثال كان المعروف ان القائد كان من العلمانيين واسمه دومينيكوساني من اسكولي وكان بعدما امضى سنوات عديدة كناسك ادعى انه اصبح ابنا لله ؛ ومن اجل ذلك احرق كمهرطق ، وهذا

بالطبع لايؤكد وجود شخصية مماثلة في ١٣٤٩ في المانيا ، وانما يجعل هذا يبدو كمجرد احتمال فقط ، ومن جانب اخر كانت هناك معلومات وافرة فيما يتعلق بمسيح لطام يدعى كونراد شمد ـ وهونظير للمبتدع الايطالي ، وفي الوقت نفسه فردريك الزائف الذي راس في ١٣٦٠ الحركة التي تحولت تحت ضغط الاضطهاد الى طائفة سرية في مدن وسط وجنوب المانيا ، وقصة هذا الرجل واتباعه تستحق البحث بشيء من التفصيل .

سرلطامي ثورنجيا

كان كونراد شمد رجلا علمانيا متعلما بدرجة كافية ، (ص ١٤٢) لينغمس في بحوث النبوءات الرؤوية في مكتبة احد الاديرة ، وكان ايضا مطلعا تماما على المعارف التقليدية المتعلقة بشكل ما بعقائد اللطامين الباطنية ، ومن جميع النواحي كان مذهبه ببساطة مذهب التائبين في عام ١٣٤٨ ـ ١٣٤٩ ، وبالنسبة لاتباعه كان جلد الذات تشبها بالمسيح تقليدا جماعيا وتضحية خلاصية حمت وحدها العالم من كارثة نهائية مدمرة ، بفضل ذلك اصبحوا هم انفسهم نخبة مقدسة ، وبالنسبة لهم ايضا كان امرا متوقعا رفض كنيسة روما وكل اعمالها ، وتسخيف القربان المقدس ، وتسمية الكنائس عصبة لصوص ، وشجب الاكليروس ، على انهم مصاصوا دماء ودجالون كشفت طبيعتهم في وحش سفر الرؤيا ، بل وحتى انكار سلطة القوى المدنية ايضا ، باصرارهم على ان الامبراطور ليس له عليهم حق للطاعة اكبر مما للبابا ، وان كل القوانين بلا استثناء لاغية بالنسبة لهم ، ويؤكد هؤلاء الطائفيون فقط مايمكن تخمينه بالفعل من سلوك اسلافهم ، ومع ذلك نجد من نواح اخرى ان مابشر به شمد هو اشد وضوحا ، وفيه يظهر الايمان المسائحي الذي طبق دوما في حركات اللطامين في المانيا بأعظم تأكيد ممكن .

وطبقا لهذه التعاليم كانت نبوءات أشعيا Isaih التي

عدت تقليديا منبئة بمجيء المسيح كانت في الواقع تشير الى مجيء شمد ، الذي اصبح الان الحامل الوحيد للديانة الصحيحة ، ومن هذا يبدو انه عندما قال خصوم شمد الكاثوليك انه اعتقد في نفسه انه رب إنما كانوا يقولون الحقيقة المتسمة بالاعتدال ، وفي الوقت نفسه ادعى قائد اللطامين لقب ملك ثورنجيا ، ولعله لم تزدهر حركة اللطامين لعامي ١٣٤٨ ـ ١٣٤٩ في اي مكان اخر بالقوة نفسها كما ازدهرت بها في المنطقة الواسعة من وسط المانيا التي كانت تعرف في ذلك الوقت باسم ثورنجيا ، ولم تبق اي مدينة او قرية دون ان تتأثر ، ولقد اصبح اللطامون شعبيين واقوياء حتى انهم حرضوا عامة الناس على رجم الاكليروس ، وقد اقفلت ارفورت بواباتها في رعب في حين كانت حشود اللطامين تعسكر في الخارج ، ومع هذا في تفحصنا مسألة ملك ثورنجيا نجد أن شمد لم يكتشف في ثورنجيا منطقة موائمة بشكل خاص لرسالته ، ذلك أن ثورنجيا كانت ايضا المنطقة التي شغلت دورا فريدا في صنع هيكل التقاليد الشعبية المتعلقة بفردريك امبراطور المستقبل .

ومن ١٣١٤ إلى ١٣٢٣ كان يحكم ثورنجيا حفيد لفردريك الثاني هو النبيل فردريك المقدام ، وكان هناك في هذا الوقت زمرة ترى في هذا (ص ١٤٣) الرجل الوريث الطبيعي للجلال الامبراطوري ، وتنشر دعاية تبسط ادعاءاته ، بينما اصبح في نظر عامة الناس شخصية إخروية ، وكان الاعتقاد على نطاق واسع أنه يحمل علامة الميلاد المعجزة ـ الصليب الذهبي المضيء بين لوحي الكتف ـ وهي العلامة التي كانت مقدرة لامبراطور الأيام الأخيرة ، وكان يتوقع أن ينفذ العقاب النهائي بحق الاكليروس . وبعد موته اندمجت شخصيتة فردريك المقدام في شخصية جده لأمه ، الامبراطور .

وبدا اهالي ثورنجيا يتحدثون عن فردريك الغامض الذي كان ينام في جبل كيفهاوزر والذي سيعود يوما في ابهة ليسود العالم من مملكته في ثورنجيا ، وهكذا بإدعائه انه ملك ثورنجيا كان كونراد شمد يدعى

انه فردريك النبوءة الأخروية ، وهذا ماعناه عندما وضع نفسه في مركز المعارضة للذبيل الحاكم ، مدعيا انه هو نفسه لديه مأثر اكبر بكثير في رصيده ، وكان عامة الناس يسمونه الامبراطور فردريك ، وعندما ادعى فردريك انه القائم والرب المجسد ، كان هذا المهرطق الكبير يشغل بالفعل الدور الذي قدر له أن يستحوذ بعد قرن ونصف القرن على خيال ثائر الراين الأعلى .

وحتى يتم قبول من سيصبح عضوا في الطائفة كان عليه أن يقدم اعترافا كاملا لشمد وأن يجري عملية جلد بيديه ، ويؤدي قسما بالطاعة المطلقة له ، ومن هذه اللحظة ومابعدها كان الالتزام الوحيد الذي يعرفه هو الخضوع التام للمسيح ، وعلم شمد اتباعه أن خلاصهم يعتمد على موقفهم تجاهه فإذا لم يكونوا « بنعومة الحرير وليونته » في يديه ، وإذا اظهروا أدنى نضال بعد الاستقلال ، فإنهم سيسلمون للشيطان ليعذبوا جسديا وعقليا فهو كان ربهم ويجب أن يصلوا له وأن يخاطبوه « ابانا » .

وكان للذين اخلصوا لشمد جائزتهم فبإمكانهم أن يبتهجوا بالمعرفة الأكيدة بأن فيهم وعبرهم سيبلغ التاريخ البشري غايته الحقيقية،وكانوا يرون أن لطامي ١٣٤٩ كانوا يمتون إليهم بمثل درجة القرابة التي قامت بين يوحنا المعمدان والمسيح ، وفي الواقع إن المسيح نفسه لم يكن سوى بشير بهم ، وبلاشك أنه قد أرشد إلى الطريق الصحيح ، إلى الخلاص بتحمله للجلد وإنه فقط الذين يجلدون أنفسهم هم الذين يمكنهم الادعاء أنهم يتبعون الطريق إلى النهاية ، والآن إن الشريعة المسيحية قد استبدلت بشريعة اعلى (يمكن للمرء التعرف على النمط اليواكيمي المألوف) واتباع كونراد شمد هم فقط حملة هذه الشريعة ، وتماما كما حول المسيح الماء الى نبيذ ، إنهم حولوا العماد(ص ١٤٤) بالماء الى عماد بالدم ولقد ابقى الرب في الواقع افضل النبيذ للنهاية ولم يكن هذا النبيذ شيئا غير الدم الذي يسفكه اللطامون.

وكان هؤلاء الناس قانعين أنهم وهم يضربون أنفسهم فإن ملاكا يدعى ـ بشكل مدهش ـ فينوس كان يرقبهم ، وجلودهم الحمراء كلها كانت تبدو مكسوة لحفل زفاف ، والمآزر التي يلبسونها أثناء الجلد كانوا يسمونها لباس البراءة ، ولكم كانت بهجة الأنبياء عظيمة لو أنهم عاشوا في تلك اللحظة وشاركوا في هذا اللطم المقدس ! وبالنسبة للملك داود فقد تنبأ في الواقع بهذا النعيم ، وقد دفع إلى اليأس عندما علم بأنه لن يعيش أبدا للانضمام إلى الطائفة ، حتى أنه وزوجته كانا يضربان نفسيهما كل ليلة كطريقة للمشاركة في تلك الأعمال التي كانت تسر الرب فوق كل شيء آخر ، بيد أن كل هذا لم يكن سوى تذوق للفرح الذي سيأتي ، للملكة الألفية التي ستظهر عن قريب ، وفيها يتجمع اللطامون حول امبراطورهم الرب ليشكلوا فرقة انشاد ملائكية ، وسيدعون أبناء الأمراء ، وفي هذه الأثناء ، باع كثير من أعضاء الطائفة ، وقد استنفدوا صبرهم حاجياتهم ورفضوا العمل حتى يغرقوا بسرعة في فقر مدقع .

وكما في ١٣٤٨ ـ ١٣٤٩ كانت دعاية اللطامين ماتزال مدعمة بالوباء ، وكانت انفجارات أصغر ولكنها منذرة بلا جدال تستمر في الحدوث كل بضع سنوات لتثير كل مرة موجة جديدة من الذعر ، وربما كان الوباء الخطير بشكل خاص في ١٣١٨ هو الذي ألهم شمد أن يعلن أن الحساب الأخير سيعقد وأن الألفية ستبدأ في السنة التالية ، ولكن بحلول هذا الزمان كان الاستجواب والتحقيق ومحاكم التفتيش كانت أيضا قد بدأت بالاهتمام بتكاثر مجموعات المهرطقين في ثورنجيا ، وارسل محقق واضح الشدة للتعامل مع الحالة ، وكانت هناك إعدامات كثيرة ، وهناك اساس للاعتقاد بأن كونراد شمد كان أحد المهرطقين السبعة الذين أحرقوا في ١٣٦٨ في نوردهوزن على بعد خمسة عشر ميلا من جبل كيفوزر الذي منه كفردريك القائم كان يفترض أنه قد ظهر ، ومرة أخرى بدأت السلطات الاكليروسية في سحق حركة اللطامين في المانيا ، وفي ١٣٧٠ حظر أسقف ورزبرغ اللطم في أسقفيته ، وبعد ذلك بعامين كان البابا يشجع التحقيق في المانيا ، والتعامل الفوري بحزم مع أي

لاطم تقع عليه الأيدي ، ولكن الحركة كانت ماتزال موجودة في الخفاء وفي ١٣٩١ ـ ١٣٩٢ وجدت مجموعات لطم جديدة بين الفلاحين والحرفيين حول هيدلبرغ واعتقد المحقق الذي قام بالتحقيق هناك أن من الأفضل أن يتجه مباشرة إلى مقر قيادة شمد القديم في ثورنجيا ، ووجد الطاعون ثائرا هناك واليهود يذبحون ، واكتشف بلا صعوبة مجموعة من اللطامين المهرطقين في ايرفورت ، وأحرق قادة المجموعة ، وفرضت الكفارة على الآخرين ، بينما ببساطة هرب الباقون(ص١٤٥) .

وكانت السنوات حوالي ١٤٠٠ غير سعيدة ، وكان زمنا مضطربا لكل النصرانية ، فلقد كان الاتراك العثمانيون يتقدمون في البلقان ، وفي ١٣٩٦ اوقعوا هزيمة ماحقة بالجيش الصليبي الذي ارسله الغرب ضدهم ، واكثر مدعاة للاضطراب حتى من هذا التهديد الخارجي ، كان التفكك الذي نجم عن الصراع العظيم الذي جزأ الكنيسة بين البابوين المتنافسين ، اللذان ادعى كل منهما طاعة كل النصرانية ، وشجب الآخر كمهرطق ، وكانت فترة من الارتباك الواسع العميق التي ـ كما حدث كثيرا ـ أثبتت أنها باعث عظيم للاثارة الأخروية ، وفي ١٣٩٦ رأى القديس الدومينكاني فنست فيرر رؤيا حول اقتراب الأيام الأخيرة ، ولاقتناعه بأن المسيح الدجال كان على وشك بدء حكمه بدأ يقود مواكب اللطامين ، وفي اسبانيا ، وجنوب فرنسا وإيطاليا ، وفي ١٣٩٩ كان فلاح إيطالي قد حظي برؤيا أخروية ادت إلى تشكيل حركة للطامين اكتسحت كل إيطاليا ، وحتى في تلك الأراضي الجنوبية حيث بقيت مثل هذه الحركات بشكل عام تحت السيطرة الكهنوتية ، فإنها كانت تتمكن أحيانا من الهروب منها . وعندما هبط موكب كبير من اللطامين من مدن لومبارديا على روما أمر البابا باعتقال قائده وحرقه ، ودخل موكب من بضع مئات من حرفيي لومبارديا بقيادة أحد حواريي فيرر من المدينة نفسها بقصد شن الحرب ضد المسيح الدجال ، ولابد أن هذا ايضا كان اكثر اقلاقا للادارة البابوية ، وكانت تجربة خزينة تلك التي ادت بعالم اللاهوت البارز والحصيف ، كارلبير دي

جيرسون لأن يوجه من مجمع كونستانس في ١٤١٧ نداء بالغ الأهمية إلى فيرر للتوقف عن تشجيع الميول الشديدة الخطر على الكنيسة .

ولكن كانت جموع اللطامين المهرطقين ماتزال غفيرة في وحول ثورنجيا أكثر من أي مكان .وكان هؤلاء الناس أيضا مقتنعين بأنهم يعيشون في الأيام الأخيرة ، وكانوا بتعابير الأخرويات الشعبية يفسرون حياة وموت كونراد شمد ، لقد تحدث سفر الرؤيا عن « شاهدين » كان عليهما أن يعظا ضد المسيح الدجال ويقتلان على يديه ثم يبعثان بمعجزة ، وقد عرفت الأخرويات الشعبية هذين الشاهدين بأنهما اليجا واينوخ ، وهما شخصيتان في العهد القديم رفعا إلى السماء دون أن يمرا بمرحلة موت الجسد ، ولقد رأى اللطامون أن شمد ومساعده قريبه الذي مات معه سيتجسدان في اليجا واينوخ في الأيام الأخيرة كشاهدين ، في حين سيكون المسيح الدجال بالطبع كنيسة روما ، غير أن المتعصبين كانوا مقتنعين ايضا بأن شمد سيعود مع ذلك مرة أخرى ليهزم المسيح الدجال ويترأس الحساب الأخير ، وبالضبط لأن (ص ١٤٦) عودة اليجا واينوخ قد حدثت في الماضي فإنهم توقعوا المجيء الثاني في كل لحظة ، ولم يكن هناك إلا قليل من الشك في أن شمد سيكون الامبراطور الأخير إضافة إلى ابن الانسان الذي يتوقع ظهوره ، وفي وقت مبكر من القرن الخامس عشر لاحظ مؤرخ من ثورنجيا كيف كانت قوة « الهرطقة السرية » حول فردريك النائم مزدهرة هناك ، وكيف كان الناس البسطاء مقتنعين بشكل مؤكد بأن الامبراطور كان يظهر من وقت لآخر بين الناس ، وكيف كانوا ينتظرون بثقة عودته كإمبراطور للأيام الأخيرة ، وانه كان من المؤكد أنه ليست مصادفة انه في المدن المحيطة بجبل كيفوزر استمرت جماعات اللطامين السرية في الوجود

وبالنسبة للبقية كانت تلك الجماعات ماتزال مدركة لارتباطها مع اسلافها ، فلقد حافظ أفرادها على طقوس حركة ١٣٤٩ وكانوا مايزالون يدافعون عن ممارساتهم بالاحتكام إلى الرسالة السماوية ، وقد حافظوا ايضا على مذهب شمد بكل نقائه ونقلوه من

الأهل إلى الأطفال بإخلاص حتى أنه بعد قرن لم يتغير إلا قليلا، وقد شكلوا في الواقع طائفة محكمة التنظيم حيث كان الأطفال حديثي الولادة يعمدون بموجب ضربهم حتى يدمون .

وبشكل تقليدي استهلت الدعاوى ضد المهرطقين ونفذت من قبل الكنسية ، وكان تدخل السلطات المدنية محدود في تنفيذ الاحكام المفروضة ، وانه لأمر له اهميته الى المدى الذي يمكن ادراكه ان الامراء المحليين للمناطق كانوا دائما هم الذين يأخذون المبادرة في ملاحقة اللطامين الثورنجيين ، وفي اضهاد هؤلاء الناس الذين كانوا في الواقع ثوار اجتماعيين بقدر ماكانوا مهرطقين ، ودور التحقيق كان في احسن الاحوال ثانويا ، وكانت هذه بالفعل هي الحالة عندما اكتشفت في ١٤١٤ ـ ١٤١٦ طائفة كبيرة من اللطامين في مدينة سانغرهورن وبعد محاكمات حاشدة نظمها المحققون والقضاة المدنيون معا احرق القائد واثنين من حواريه كمهرطقين غير تائبين سادرين في غيهم ، وارتد الباقون واطلق سراحهم ، ولكن عندما ترك المحقق المنطقة كان الامراء في الامارات المجاورة يمسكون بكل لطام يمكنهم العثور عليه واحرق نحو من ثمانين او تسعين لطاما في ١٤١٤ ويبدو ان ثلاثمائة قد اعدموا في يوم واحد في ١٤١٦ ، وبالتأكيد كان هذا تعبيرا عن الخوف المذهل الذي اوحت به هذه الحركة في « العظيم » ، وحتى هذا اخفق في وضع نهاية للحركة .

بعد جيل في ١٤٤٦ ، اكتشف نحو عشرة من اللطامين في نورد هوزن ، وهي المدينة التي يحتمل ان شمد نفسه قد احرق فيها ، وفي هذه الحالة ايضا ، حتى اولئك الذين ارتدوا قد احرقوا ، وهذه هي طريقة من العمل يبدو انها كانت متبناة من قبل السلطات المدنية دون تصديق من الكنيسة ، ويحتمل ان لايكون ذا علاقة ان احد الضحايا كانت مهنته المعروفة هي صناعة النسيج ، وفي ١٤٥٤ جرى ثانية احراق حفنتين من اللطامين من الرجال والنساء (ص ١٤٧) في سندرهوزن : ، و كان في وقت متأخر الى عام

١٤٨٠ ان اخر (الى حد ماهو معروف) اللطـامين السريين قـد حوكم واحرق ، وهنا مرة اخرى بتحريض من الامير المحلي .

واذا لم يسمع بعد ذلك عن هذه الطائفة فـانها مـابرحت تتمتـع ببعض الاهمية من حيث ان المناطق التي كانت اكثر ازدهارا فيهـا ، كانت المناطق التي ستشهد نشاطات توماس مونتزر ، والقرية التي ولد فيها في ١٤٨٨ او ١٤٤٩ « متنبىء الفلاحين هذا » شـهدت ولادة حرب وقعت على بضـعة اميال مـن نورهـوزن ، وكذلك كان مسرح المذبحة حيث سحق جيشه الفلاحي .